جامع القرويين أقدم جامعة

لحضرة العلامة سيدي احمد الصبيحي

ثبت في التاريخ أن جامع القرويين بفاس عاصمة المغرب العلمية بنته المرأة القانتة الصالحة أم البنين فاطمة بنت محمد الفهري القيرواني عام ٢٤٥ هـ - ٨٥٩ م لما قدمت مع ابيها واخوتها في وفد القيروان على مولانا إدريس باني فاس رضي الله عنه .

وأطلقت مجلة الهلال الصادرة عام ١٣٥١ هـ جزء ١ ص ٥٠٨ أن القرويين بفاس أقدم مدرسة كلية في العالم وذكرت توارد طلاب العلم عليها حتى من اوربا وان منهم البابا سلفستر أول من أدخل الى أوربا الارقام الحسابية بعد أن اتقنها في القرويين كما برسالته هو الى الامبراطور انتون .

وجاء في مجلة الهلال المذكورة عام ١٣٥١ هـ ج ٥ ص ٦٧٤ بقلم الدكتور زكي علي أن أقدم كلية في اوربا هي كلية الطب بثغر سالرنو قرب نابولى بايطاليا اذ لما فتح هذا الثغر سنة ١٠٧٦م النورمانديون الذين كان ملوكهم يشجعون نشر الثقافة العربية عقب احتكاكهم بهم في صقلية جنوب ايطاليا نظموا مدرسة سالرنو حتى صارت كلية .

أما الاكاديميات فانها انشئت بعد ذلك بكثير فبافرانسا سنة ١٦٣٥ وبالمانيا سنة ١٧٠٠ وبانكلترا سنة ١٧٦٨ وباميريكا سنة ١٧٨٠ .

وليس في المعروف من التاريخ القديم عن الصين والهند وبابل ومصر ما يفيد وجود شبه الكلية اي المدرسة الجامعة التي يدرس فيها كل العلوم .

كما انه توجد مساجد تأسست قبل تأسيس القرويين بالشام والعراق ومصر وغيرهن ولكنها ليست بالمثابة المذكورة كجامع الزيتونة بتونس فان تأسيسه كان عام اعلم (١٤١ هـ - ٧٥٨ م) المنقوشة على اقواس بيت الصلاة فيه بالقوس المواجه لمحل المصحف كما للشيخ بيرم في صفوة الاعتبار بمستودع الامصار والاقطار ج ١ ص ١٢٢ .

أما جامع الازهر ثالث الكليات بافريقيا فانما أنشأه مسجداً للقاهرة المعزية القائد جوهر الصقلي الداخل لمصر من قبل الفاطميين بالمغرب عام ٣٥٩ - ٩٦٩ كما هو معلوم.

إذاً ثبت الفخر للقرويين بالمغرب أنها أقدم كلية بالعالم أفلا يكون هذا حافزاً لنا معشر المغاربة حكومة وشعباً على أن لا تبقى أحط كلية بالعالم ؟

لقد كان جامع القرويين في العهد القديم قبل التنظيم مفخرة كبرى من حيث تدريس العلوم على أتم وجه من أساتذة جهابذة يجمعون في تدريس مختصر الشيخ خليل بين شرحي الخرشي والزرقاني وحاشيتي الرهوني وجنون وغيرها وفي تدريس جمع الجوامع للامام السبكي بين شرح المحلي وحواشي البناني والعبادي والشربيني وغيرها وفي تدريس التلخيص في المعاني والبيان بين مختصر السد وحاشية البناني تارة والمطول والاطول وغيرهما تارة وفي غير ذلك غيره من المؤلفات المبسوطة والمحققة وكثير من المدرسين يدرسون بشروحهم وحواشيهم .

نعم كان سير التعليم موكولا الى حسن اختيار التلميذ او ولي أمره ان كان ذا خبرة وبصيرة مع لزوم السنين الطوال في التحصيل الذي لا يحصل الا للقليل .

أما في عهد التنظيم الذي أجراه المخزن السعيد بالقرويين المذكورة فقد تدورك خلل سير التعليم المذكور بما كفل الفائدة المؤكدة للعموم في أقصر مدة ، ولكنه لا زال في طور التجربة التي كشفت بعض نقط ضعف سيما في اختيار الاساتذة والكتب لكل فن .

احياء العلوم وازدهارها في عصر الدولة العلوية
(تتمة)

ثم ولده السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن من آثار نهضته العلمية طبع شرح الخرشي الصغير في اجزاء ستة بالمطبعة الفاسية طبعاً أنيقاً متقناً لم يسبق له مثيل ، وكذلك شرح الشيخ التاودى على العاصمية ، وشرح ميارة الصغير على المرشد المعين والازهري على الجرومية وهو أول ما طبع بفاس وتحبيس كمية وافرة على القرويين من ذلك المطبوع ، ومنها تشجعيه للمؤلفين وتنشيطه لهم ماديا وأدبياً واداء المصاريف حتى أجرة النسخ ومنها توجيهه لمصر أيام محمد سعيد جماعة من الطلبة لتلقي العلوم الرياضية ، وممن نبغ من الوفد وبرع عبد السلام الشريف العلمي مؤلف شرح الوزكاني وضوء النبراس في حل مفردات الانطاكي بلغة فاس ، والبدر المنير في علاج البواسير والاسرار المحكمة في حل رموز الكتب المترجمة ، وهو مخترع الآلة ذات الشعاع والظل (مجانة ساعتية) وجل هذه الكتب طبع بفاس ومنهم محمد بن كيران مخترع ثمن الدائرة عوضا عن الربع وغيرها من مهم الاختراعات ذات البال ولكنها وياالاسف ماتت بموته اذ لم يقدر نشرها بالطبع ولم يخلف الرجل عقباً محتفظاً ، وهو أول من جعل قاضيين بفاس وذلك أن القاضي الشريف مولاى محمد بن عبد الرحمن طلب من جلالته من يعينه في الاحكام فأجابه لذلك وعين أبا حفص عمر الرندة وكان ذا صرامة في الاحكام شديد الشكيمة على المتبدعين وأصحاب الفجور .

ثم ولده السلطان المولى الحسن ومن أشهر آثاره في النهضة العلمية بعثه البعوث لتلقي العلوم الحربية والرياضية بمصر ومختلف دول اروبا ، وممن كان وجهه لاتمام دروسه الطبية بمصر الطبيب الماهر عبد السلام العلمي حسبما صرح بذلك في ديباجة مؤلفه البدر المنير المشار له حيث قال : « وقد جمعت له هذا التقييد من عدة كتب ورصعته باعمال الطب الجديد حسبما حضرناه في الاسبطالية الكبرى بمصر القاهرة بمدد مولانا المنصور بالله من أحيا موات العلم بهمته السنية الخ... » ومن آثاره العلمية الجاري نفعها طبعه بالمطبعة الحجرية الفاسية شرح الاحياء للشيخ مرتضى الزبيدى آخر الحفاظ عام ١٣٠٤ وحبس عدداً وافراً منه على خزانة القرويين ، وطبعه لتاليف خوجة الطوسي في تحرير اصول الهندسة لاقليدس وأمره لشيخه أبي العباس أحمد بن الحاج بتاليف في تاريخ الدولة العلوية وأسعفه على ذلك فألف الدر المنتخب يزيد على خمسة عشر مجلداً ومات قبل اتمامه ، وامره لكاتب حضرته اني العباس أحمد بن عبد الواحد بن المواز بتأليف كتاب في الاستدلال على صحة الكيميا فألف رسالته مطلع الضيا في الاستدلال على صحة الكيميا وأنشاء قراءة المختصر الخليلي بعد صلاة العصر ورداً كل يوم بحيث يختم مرة في الشهر ولا زال العمل جاريا بذلك الى اليوم وجعل جعلا لكل من يحفظه ويمليه عن ظهر قلب وينظمه في سلك اهل الطبقة الرابعة من العلماء ، وفي مدح هذا السلطان يقول أبو محمد عبد السلام العلمي المذكور :

بأميرها الشهم الجواد ... فاس تفوق على البلاد
ولها الاله به بنى ... مجداً على أقوى عماد
مجداً يكاد بناؤه ... يعلو على السبع الشداد
والعلم فيها آخذ ... في كل وقت في ازدياد
ربحت تجارته فما ... يخشى عليه من كساد

ثم ولده أبو فارس المولى عبد العزيز فكم أجرى من جرايات لا يستهان بها على المدرسين بجامع القرويين على اختلاف طبقاتهم وعلى طلبة المدارس المنقطعين لتلقي العلوم ، والبحث في منطوقها والمفهوم تشجيعاً لهم وتنشيطا واغراء على الدءوب على نشر العلم ومحاربة داء الجهل ومن آثاره بفاس انشاء قراءة البخاري والشفا بالضريح الادريسي الازهر شروق كل يوم وعين لذلك جلة علماء عصره ورتب لهم جراية وافرة .

فعلى الموكول اليهم رقابة ذلك أن يخلصوا النصح للحكومة بما ثبت لديهم فيه كما على كل من تحقق لديه شيء منه أن يعلنه لها بأدب وحسن قصد فإنها ما بدأت التنظيم وصارت تصرف عليه المصاريف الباهظة في تحسين رواتب العلماء وما الى ذلك الا لتتمه وتبقى مفخرة القرويين في العصر الحاضر كما كانت في الماضي الغابر .

فلتتعاضد معها في ذلك حرصاً على العلم وتعلمه لذاته والفخر به أيضاً أمام العالم كذلك والله الموفق سبحانه لارب غيره ولا خير الا خيره .

أحمد الصبيحي

ثم اخوه السلطان ابو السخاء المولى عبد الحفيظ ، ومن آثار نهضته العلمية ما طبعه بفاس من الكتب القيمة النادرة الوجود كشرحه على خطبة مختصر خليل في جزء ومؤلفه في الرد على متصوفة الزمان ، وحواشي الشيخ التاودى على البخارى في اربع مجلدات والمشارق لعياض في مجلدين وحاشية ابن سودة على رسالة الوضع في جزء وحاشية الوزاني في الانتصار للسدل في جزء وتحفة الملك العزيز في الرحلة لباريز للعمراوى في جزء ومعيار الاختبار بين المعاهد والديار لابن الخطيب وفتح الودود لابن ابراهيم الشنجيطي مع نيل السول لابن عاصم وحواشي الشيخ ياسين على الخلاصة مع الكافية وشرحها لابن مالك في مجلدين وبداية المجتهد للحفيد ابن رشد في مجلد ونظم المتناثر من الحديث المتواتر للكتاني ومجموعة قصائد المترجم في جزء الكل بالطبعة السلكية الفاسية الامامية ، ومنها ما طبع بالمطبعة الحجرية التجارية الفاسية من ذلك مشرب العام والخاص لليوسي في مجلد وحواشي ابن زكرى على البخاري مع تكميل جنون وتكميل المترجم لها في خمس مجلدات واختصار المواهب النحوية للشنجيطي مع القول المختار على الالفية والاحمرار طبع منها مجلدان فقط ومفتاح الاقفال للسجلماسي في مجلد وفيض الفتاح للشنجيطي في مجلدين ونشر البنود للشنجيطي المذكور مع شرح حلولوا لجمع الجوامع في مجلدات ثلاث وشرح ميمية الشيخ حمدون في السيرة طبع منه جزآن ونفحة المسك في مجلد وشرح الخريدة لابن كيران وغير ذلك ، وكذا ما طبع بمصر من الكتب التي كانت أعز من بيض الانوق كتفسير ابي حيان المسمى البحر المحيط مع النهر الماد له والدر اللقيط في مجلدات ثمان وشرحي الابي والسنوسي على مسلم في مجلدات سبع والمنتقى للباجي على الموطا في مجلدات سبع والروض للسهيلي في مجلدين والاصابة لابن حجر مع الاستيعاب لابن عبد البر في مجلدات اربع والاحكام الكبرى لابن العربي المعافري في مجلدين وشرحي الحطاب والمواق على مختصر خليل في مجلدات ست وشرحي زروق وابن ناجي على الرسالة في مجلدين ونظم المترجم لمغني اللبيب مع شرحه للحوضي وحواشي فتح الصمد على ذلك لابن مبارك الروداني في مجلدين ، وقد فرق عدداً وافراً من جميع ما ذكر على أعيان العلماء وجل خزائن الكتب شرقاً وغرباً وأمر كاتب حضرته أحمد بن المواز بتاليف كتاب في الاحكام الفلكيه فألف الطبيعة الجلية وأمر شيخه الشيخ المهدي الوزاني بشرح منظومته ياقوتة الاحكام فشرحها في مجلدات اربع وأمر الشيخ احمد بن الخياط بشرح نظمه لجمع الجوامع فكتب فيه عدة كراريس آية في التحقيق والابداع ومات قبل اتمامه .

وكم وصل العلماء بصلات وقرر لهم من عوائد وهو آخر من توجه من قصره لحضور اختام العلماء اقتفاء لآثار سلفه فقد حضر ختم الشيخ المهدي الوزاني لمختصر خليل بجامع ابي الجنود .

ثم اخوه السلطان ابو المحاسن المولى يوسف وهو ثالث المؤسسين التدريس بكلية القرويين فبنفس ما تبوأ عرش اسلافه الكرام أصدر أمره العالي بانشاء مجلس تحسيني لكلية القرويين ينظر فيما تتحسن به حالة التدريس والتعليم وبترقية جرايات المدرسين ذوي المراتب وأسند الرياسه فيه أولا لنائب الصدر الاعظم في المعارف الفقيه العلامة أبي عبد الله محمد الحجوي ثم بعده للفقيه العلامة أبي العباس احمد بن الخياط ثم في عام ١٣٣٦ أصدر اليه أمره العالي بما لفظه بعد الافتتاح :

الفقيه الارضى رئيس المجلس التحسيني لكلية القرويين عمرها الله بدوام ذكره الشريف السيد أحمد بن الخياط سددك الله وسلام عليك ورحمة الله تعلى وبركاته أما بعد فلا يعزب عن علمكم ما لجنابنا الشريف من الاهتمام الكلي بالعلم والعلماء وما قام به جنابنا العالي بالله منذ اعوام من تمهيد الوسائل التي تتحسن بها حالة التعليم ، ابتغاء الحصول على النفع العميم ، اذ انتشار العلم في الامم هو الشرط الاول في حياتها وحفظ كيانها وشريعتها ، ولذلك لما تكررت منكم استعطافات جنابنا الاسمى ، وطلب النظر فيما تنتعش به هذه الفئة المنتسبة لجانب العلم الاسمى ، اقتضى نظرنا السديد ، ورأينا الموفق الرشيد ، بعد التأمل في القضية ، وأعطائها حقها من الاهمية ، أن اصدرنا امرنا الشريف بترقية رواتب العلماء ذوي المراتب بشرط مواظبة كل منهم على تدريس فنون العلم التي يرشحون لتدريسها بعد ، أما العلماء ذوو الرتبة الاولى فيشترط في حقهم التدريس كذلك لكن لا يتقيدون بتعليم فن دون آخر لاستحقاقهم تدريس سائر العلوم وقدر ما ينفذ سنوياً من الاحباس لكل واحد من مدرسي الرتبة الاولى اثنتا عشرة مائة بسيطة مخزنية ولكل واحد من مدرسي الرتبة الثانية سبعمائة وعشرون بسيطة ولكل واحد من مدرسي الرتبة الثالثة اربعمائة وثمانون بسيطة ولكل واحد من

مدرسي الرتبة الرابعة ثلاثمائة وستون بسيطة ثم يجري كل قدر على التقسيط للمنفذ له شهرياً زيادة على الصلات السنوية كما اقتضى نظرنا الشريف ابقاء ادارة شئون القرويين منوطة بمجلس تحسين التدريس كما كان، نعم لمزيد الاهتمام والرغبة في سير اعماله على ما يرام، صدرت اوامرنا العالية بالله بأن يكون يعرض خديمنا وزير العدلية الشريفة كل ما يتعلق هناكم بالمعارف الاسلامية على مجلس مرتبة العلوم الدينية المنعقد تحت رياسة جنابنا الاسمى متركباً من خدامنا الوزير الصدر الاعظم ووزير العدلية ووزير الاحباس وحاجب حضرتنا الشريفة وبان يعين أمين من جانبنا الشريف من أعيان ابناء فاس يكون مكلفاً بدفع رواتب العلماء مع السهر على تعاهد أحوال التدريس وقيام كل عالم بوظيفه بحيث لايقبض الرواتب المسطرة، الا من استكمل الشروط المذكوة المقررة، ويعلم الله أن القصد من هذا كله هو زيادة انتشار العلوم وتوفر جمع العلماء وتحسين التعليم حقق الله الرجاء وعليه فنامرك ان تجمع سائر العلماء ذوي المراتب الاربعة وتقرأ عليهم كتابنا الشريف هذا ليقوم كل منهم بما يجب عليه ويعلم أن المرتب شرطه التدريس والقيام، لا مجرد الاتصاف بالعلم والسلام ١٦ ربيع الثاني عام ١٣٤٦ .

ثم اقتفاه في ذلك ولده سلطاننا الحالي أبو عبد الله سيدي محمد الثالث ادام الله عزه ونصره وجمل بمحاسنه عصره فبنفس ما جلس على اريكة عرش اسلافه الاكرمين افتتح اعماله المبرورة نصره الله باعمال نظره الشريف فيما يحفظ نظام الدين ويحميه من فوضى المعتدين وصرف مع كمال الاعتبار وجهته المنيفة الى كلية القرويين فاصدر امره الشريف بترتيب ازمنة التعلم والتعليم ترتيباً دورياً وعين لمراقبة التدريس بعض طلبة الكلية القروية من اهل فاس في مقابلة راتب شهري قدره ١٦٥٠ فرنكاً وقسم المدرسين الى ثلاث طبقات، وحصر عدد الاولى في ثمان ورتب لكل واحد منها ١٥٠٠ فرنكا مشاهرة وحصر عدد الثانية في ثنتي عشرة والراتب الشهري لكل منها ١٢٥٠ وحصر عدد الثالثة في اثني عشر براتب شهري قدره الف فرنك لكل مدرس وعين لكل طبقة ما تتعاطى تدريسه من الكتب العلمية على ان تبتدئ الدروس من الساعة الثامنة الى الحادية عشرة صباحاً ومن الثانية الى الخامسة مساء وحدد لكل درس ساعة زمنية وانيط بكل مدرس القاء ثلاثة دروس يومياً مع تخصيص كل فرد من افراد الطبقات الثلاث باقراء فن لا يتجاوزه الى غيره وجعل ساعات التعليم بالنسبة للمتعلم ستاً وبالنسبة للمعلم ثلاثا يفصل بين الست ساعات بشطرها انتجاعاً للراحة وسعياً وراء فائدة الاستراحة، وانا ط ملاحظة مراقب الدروس برئيس المجلس العلمي بفاس وعلق شئون المجلس العلمي بانظار المجلس الاعلى بالرباط المتركب من وزرائه الكرام :

هذا واننا نؤمل من حنان مولانا السلطان وشفقته على رعيته وسعيه في ترقيتها وتقدمها واخراجها من ظلمات الجهل الى نور العلم ان ينظر نظراً خاصاً فيما اسسه من النظام بهذه الكلية الجامعة فيسند لكل مدرس ما يحسن تدريسه من الفنون ويستطيع ابلاغه للتلاميذ ويبدل من الكتب المقرر تدريسها النافع منها بالانفع ومن الفنون الحسن بالاحسن اذ بذلك تحصل ضالة مولانا المنشودة ويرى في رعيته ما يسر جلالته الكريمة ادام الله فخره ونصره وخلد في المعالي ذكره .

عبد الرحمن بن زيدان

— دواء —

اسبيرين (معامل الرون)

الم الاسنان — ووجع الرأس

ونزلات البرد

والروماتزم

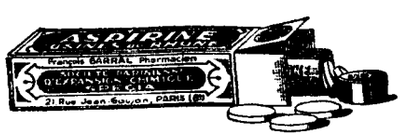

اشهر من ان يعرف بها

— تباع في سائر الصيدليات —

هذا وقد سبقت شهرة القرويين في العالم بناء هذه المدارس وذاع صيت علمائها في الآفاق قبل المدارس وبعدها ، كيف وقد حضر تاسيس فاس مع الادارسة امثال بني الملجوم الذين كان منهم وزراء وعلماء وقضاة وبقي بيتهم بيت علم وقضاء زمناً طويلا بعد الادارسة وأول قضاة فاس عامر بن محمد القيسي على عهد المولى ادريس سمع من مالك وغيره ، ويكفي في شهرة القرويين اوائل القرن الرابع وجود دراس بن اسماعيل بها ذلك العالم الذي تلمذ له المغرب والمشرق وترجمته مشهورة توفي بفاس سنة ٣٥٧ وهو الذي ادخل مذهب مالك للمغرب ، وابن محسود الهواري قاضي فاس صاحب كتاب الزيادات على المدونة المتوفى سنة ٤٠١ وغيره من القضاة والمفتين الذين تقدموه وتأخروه وكان بالقرويين بنو العجوز الكتاميون الذين دامت فيهم رياسة العلم والفتوى من أول القرن الخامس الى أواخر السادس واشهرهم عبد الرحمن الذي كانت الرحلة اليه من اقطار الارض تلمذ لدراس السابق وكان بنوه خمسة كلهم مشاهير كبار وعنهم أخذ القاضي عياض وعياض نفسه دخل فاساً واستمد من القرويين واستمدت منه ومحل نزوله لا زال معروفاً بزنقة حجامة عند بني الغرديس الى الآن يتبرك به ودخلها ابن رشد الفقيه وابن العربي وبها توفي ، ومن علمائها أبو عمران موسى ابن عيسى بن أبي حاج الفاسي وبيتهم شهير جمع من عوالي حديثه مائة ورقة وكانت الرحلة اليه من الاندلس وافريقيا ثم استوطن القيروان فكان رئيس علمائها في وقته وله التئاليف الحسنة في الفقه والحديث ومن تلامذته عبد الله ابن ياسين مؤسس الدولة المرتونية على اساس الفضيلة توفي أبو عمران سنة ٤٣٠ ، ومن بينهم أبو محمد يسكر الغفجومي حامل لواء الفقه بالديار الافريقية وصاحب الحاشية البديعة على المدونة توفي سنة ٦٩٨ ، وأبو ذر الخشني وكانت اليه الرحلة من اقطار الارض ، وأبو الحسن بن القطان الفاسي قاضي سجلماسة المحدث الشهير توفي سنة ٦٢٨ ، وأبو الفضل راشد ، وأبو محمد صالح الهسكوري ، وأبو محمد الشريف الكركي ، وأبو زيد الجزولي الذي كان يحضر مجلسه اكثر من الف من الفقهاء ، ثم بيت الوانشريسيين والعبدوسيين والفاسيين الفهريين والسوديين المرينين وغيرهم مما يطول ذكره وتجده مفصلا في الجزء الرابع من كتاب الفكر السامي[1] وبذلك تعلم مقدار شهرة القرويين قبل تأسيس المدارس وبعدها.

وقد نبغ فيها في غير العلوم الدينية افراد كثيرون ، وقد دخل ابن باجة المعروف بابن الصايغ فاساً وتوزر فيها ليحيى بن يوسف بن تاشفين وجاء في ترجمته انه اصلح حال العلوم الرياضية هناك من طب وهندسة وفلسفة وغيرها اذ كان امام العصر في ذلك وفي غيره توفي سنة ٥٣٣ بعد ما لبث بفاس دهراً طويلا ، واشتهر بفاس عبد الله بن حجاج الحيسوبي المتوفى سنة ٦٠١ ، واحمد الجزنائي الطبيب الاديب توفي سنة ٧٣٩ ، وأبو الجاديري الفلكي المتوفى سنه ٨١٨ ، وعبد الله اليفرني الحيسوبي الشهير المتوفى سنة ٨٥٦ ، وابن البناء الفلكي الفيلسوف المتوفى سنة ٧٢٠ ، ومحمد بن عمر الفلكي المتوفى ٧٩٤ ، وأبو عمران بن عقدة الصلتاني المتوفى سنة ٩١١ ، وغير هؤلاء مما لا نطيل به وانما جئنا بهؤلاء على سبيل التمثيل اذ شهرة علماء القرويين اكبر من ان تحصر في مثل هذا المقال.

هذا ما يتعلق بسالف القرويين المجيد والذي يهمنا أكثر هو مستقبلها فعسى أن تتم نهضتها حتى يضاهي حاضرها ماضيها وتكمل زهرتها على عهد مولانا الامام سيدي محمد بن يوسف أنجح الله مسعاه ويسره لاعلاء مستوى هذه البلاد العلمي وأيده بروح منه.

محمد المهدى الحجوي

(١) الفكر السامي في تاريخ الفقه الاسلامي للوزير الاستاذ محمد الحجوي.